سفير العلم والدعوة

سفير العلم والدعوة

تأليف
فهد بن يحيى العماري
القاضي بمحكمة الاستئناف بمكة المكرمة

فهد بن يحيى العماري

أبوة العلم

وأبوة العلم والتعليم شعبة من الهَدي النبوي.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ، أُعَلِّمُكُمْ**»[1] وفي رواية: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ، أُعَلِّمُكُمْ**»[2].

● وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازي الشافعي يقول: (من قرأ عليّ مسألة فهو ولدي)[3].

وقد تبلغ منزلة الطالب عند شيخه أعظم من ابنه.

● قال مالك بن دينار: (أتينا أنسًا أنا وثابت ويزيد الرقاشي، فنظر إلينا فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! لأنتم أحب إليّ من عِدَة ولدي، إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم، إني لأدعو لكم في الأسحار)[4].

ووجدت هذا في بعض العلماء وطلبة العلم في عصرنا من ينزل طلابه منزلة أولاده، وربما قدمهم على أولاده تعظيمًا للعلم وأهله، وتربية لأولاده على ذلك وتحبيب العلم فيهم، ولأن النفع المتعدي أفضل من النفع القاصر، ولأن المصلح أنفع من الصالح وأولى بالتقديم.

---

(١) رواه أبوداود (رقم ٨) والنسائي (رقم ٤٠) وصححه النووي في المجموع (٢/ ٩٥).
(٢) رواها ابن ماجه (رقم ٣١٣).
(٣) طبقات الشافعية (٤ / ٢٢٦).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥ / ٣٦٤).

وقد ترسخت معاني الأبوة العلمية في قلوب العلماء والأشياخ والطلاب، ومن ذلك ما كان يردده الإمام النووي في مواضع عدة من كتابه «المجموع»: (وهو أحد أجدادنا في سلسلة التفقه)[1] يقصد عثمان بن سعيد بن بشار الأنماطي وسفيان الثوري شيخ الإمام الشافعي رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

● قال الإمام النووي، العالم البار بشيوخه: (فإن شيوخه في العلم آباء في الدين، ووصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهل الأنساب والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب! مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم)[2].

ومتى استشعر الطالب تلك البنوة والأبوة نال من العلم والخير والأجر شيئًا كثيرًا.

ومثل ما تقدم يكون الشيخ والمعلم لطلابه، وتجد تلك المواقف والسير في كتاب «التواضع العلمي»[3].

والأستاذ في عين تلميذه وطالبه هو ضياؤه ونوره وقدوته ونبراسه وأبوه في الإفادة والتربية، ملء بصره وسمعه، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه ويتألم لفراقه، هو كالظل له، يعينه على بذل العلم ونشره والثبات على دينه، ينزله منزلة أبيه.

والطالب في عين أستاذه كالأب لابنه، يأخذه بالشفقة والرحمة والمدح والثناء والتشجيع تارة، وبالحزم والعزم والنصح والتقويم تارة، حتى لا يختل التوازن في التربية، يفرح لنجاحه وتقدمه العلمي وفطانته وثباته على دينه وإيمانه،

(١) المجموع (١ / ١٥٦، ١٥٩، ٣ / ٣٨، ٣٨٦). وانظر أبوة العلم.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ / ٢٩).
(٣) قريبًا يصدر بإذن الله.

يفرح إن رآه خطيبًا مفوهًا، ومعلمًا متميزًا، وداعية مؤثرًا، ويشار إليه بالبنان كفرح الأب بابنه، ويحزن لما يصيبه من عوارض الدنيا وآفاتها، ويبلغ به الأسى حينما يتنكب الطريق ويصاب بالعثرات والزلات، أو يصبح ليس صاحب رسالة سامية وهدف منشود، وإنما كالدهماء من عامة الناس في أندية أهل الدنيا يرتع، ومنطقه منطقهم، وحاله حالهم، ليس للعلم أثر في حياته وتميزه وكلامه.

يتفقده إن غاب، ويعوده إذا مرض، ويفرح به إذا قدم عليه، ويرفق به إذا رأى منه خوفًا ودهشة، ويتودد للطالب الغريب إذا قدم حتى لا يستوحش، ويسعى في مصالح الطلبة والشفاعة لهم وجمع قلوبهم، ومساعدتهم بما تيسر عليه من جاه ومال عند قدرته على ذلك، وتوفير الكتب لهم، ويسهل لهم العلم، ويفهمهم إياه بلاضجر، ويمدهم بالمشاريع العلمية، ويبذل النصح لهم فيما يكتبون.

- يقول الضياء في مناقب ابن قدامة: (وما علمت أنه أوجع قلب طالب)[1].
- وما أجمل ما قيل في مسلم بن أحمد القرطبي (ت ٣٣٤): (كان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق، يجتهد في تبصيرهم ويتلطّف في ذلك)[2].
- وقال ابن كثير عن كمال الدين الشاغوري الشافعي (ت ٢١٦): (كان يقرئ بالجامع الأموي الفقه، وشرح التنبيه للطلبة، ويتأنى في تفهيمهم حتى يفهموا احتسابًا)[3].

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٧٠).
(٢) إنباه الرواة (٣/ ١٦٢).
(٣) البداية والنهاية (١٧/ ٥٠).

● واسمع ثالثة إلى البكري مع شيخه القرافي (ت ٤٨٦) في أجمل وصف وأبدع وفاء وبيان في العناية الفائقة بالإقبال عليه وتعليمه: (كان معتكفًا على التعليم على الدوام، فأحلَّني محلّ السواد من العين والروح من الجسد، فجلت معه في المنقول والمعقول)[١].

● وكان ابن حجر يمد طلابه بكتبه وغيرها ليكملوها مشاريع علمية.

ومن حق الشيخ على تلميذه أن يدله على العلماء وطلاب العلم ليتلقى عليهم ويشفع لهم عنده.

● وممن اشتهر بذلك الواقدي (ت ٢٠٧) يقول العقدي والزبير: (ما كان يدلنا ويفيدنا على الشيوخ إلا الواقدي)[٢].

● ويقول السخاوي: (إن شيخه ابن حجر كان يكتب إلى العز بن الفرات يرغبه في التحديث ويحثه عليه، ويؤكد عليه في الاهتمام بشأني، وبالله كلما تذكرت هذا وشبهه من إقباله علي وإحسانه إلي يتصدع قلبي، فإنا لله وإنا إليه راجعون! وكل هذا يسيرٌ بالنسبة لما أودعه الله عَزَّوَجَلَّ في قلبه من النصح والرغبة في نشر العلم، ولذلك نشر الله ذكره في الآفاق، ورفعه إلى المحل الأعلى)[٣].

ما أعظمهم وأعظم الأنس بهم والحزن على فراقهم، صدقًا كانوا علماء صادقين ربانيين، جعلهم الله في عليين!

غابـوا وألحـاظُ أفـكاري تُمثِّلُهُم ... لأنّهـم في ضميرِ القلـبِ قد نزلوا

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (٣٩٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ٨٥٤).
(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣/ ١٠٢١).

وكن لبيبًا بالإشارة تفهم فيما يعرض ويلمح في التربية والسلوك والعتاب من الأستاذ لتلميذه، فربّ إشارة أبلغ من عبارة، ورُبّ تلميح أبلغ من تصريح.

كونوا لمن تَهَلتم من علمه وأخلاقه أوفياء بررة كما كانوا لكم، وقد بذلوا لكم نفيس أعمارهم وأوقاتهم، وضحوا من أجلكم بالكثير، وقدموكم على غيركم من القريب والبعيد، وخاصة أهلهم.

وإليك صورة رائعة جمالية من جميل الألفة بين الشيخ وطالبه.

● قال ابن النّطّاح: (كنت عند الخليل بن أحمد، فأقبل سيبويه، فقال: مرحبًا مرحبًا بزائر لا يُملّ. فقال أبو عمر المخزومي، وكان كثير المجالسة للخليل: ما سمعت الخليل يقولها لأحد إلا لسيبويه)[1].

يا سليل العلم: لا تضجر من النصح والتوجيه والعتاب من شيخك وأستاذك، فما كان دافعه إلا المحبة والنصح والشفقة، وإلا فما ضره تقصيرك وتغيرك! وإليك سموًّا في التواضع.

● قال الثّنّي: (رأيت شيخًا راكبًا بمنى، وشيخ يقوده وآخر يسوقه، وهما يقولان: أوسعوا للشيخ! فقلت: من الراكب؟ فقيل: الأوزاعي. قلت: من القائد؟ قال: سفيان الثوري. قلت: فالسائق؟ قال: مالك بن أنس)[2].

وإليك ما يخفق له القلب: فهذا ابن غديان عالم الأصول والمقاصد وقبلتها يصلي بالناس، وخلفه الباز إمام من أئمة عصره، فيسبقه إلى باب المسجد، ويأخذ نعله وينفض الغبار عنها ويضعها بين قدمي الباز! فعليهم سوابغ الرحمة والغفران.

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢/ ٣٥٢).
(٢) الكامل (١ / ١٧٤).

يقف القلم حائرًا عن الوصف والتعليق.

إنه سمو الطالب مع شيخه مهما علا كعبه.

إنه درس لطلاب العلم في التواضع والخدمة.

إنه أثر العلم على الروح والأخلاق والنفس فيزكيها ويعلو بها في درجات السمو والأخلاق.

كن وسطًا فيما تقدم بين الغلو والجفوة والجفاء في علاقتك مع شيخك وأستاذك، فلا إفراط ولا تفريط، ولا ردود أفعال، فخير الأمور الوسط، وكن على منهج السلف، وفي فعل السلف ما يغني عن بعض أفعال الخلف، وقد تقدم موجزه ومختصره.

وفي الاعتدالِ للنفوسِ مخرجُ ... فخُذْ به فنعمَ ذاكَ المنهجُ
وحاذرِ الإفراطَ والتفريطَ ... فإنّ فيه للفتى تَوريطا

ومن عناية العلماء بطلابهم وحب الطلاب لعلمائهم زواجهم من بنات شيوخهم، وهذا كثير، ومن ذلك زواج ابن المسيب من ابنة أبي هريرة.

وزوّج السمرقندي ابنته للكاساني بعدما خطبها الملوك لجمالها، لكنه آثر العلم وأهله والبر بطلابه. وقد قيل: زوجه ابنته فشرح تحفته. قال ابن عابدين في حاشيته: (وكانت الفتوى تخرج من دارهم، وعليها خطها وخط أبيها وزوجها)[1].

وتزوج ابن كثير ابنة شيخه المزي.

(١) حاشية ابن عابدين (١/ ١٠٠).

وتزوج الهيثمي ابنة شيخه العراقي.

وفي ترجمة ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الفقهية: (أنه ألزمه شيخه الشناوي بالتزوج فقال: لا أملك شيئًا. فقال: هي ابنة أختي، والمهر من عندي. فزوجه بها)[١].

ما أعظمها من نفوس وأبرها! ونظر ثاقب لبناء أسر علمية ومجتمع صالح، فلم تنظر لغير ذلك مما هو واقع اليوم.

ومن جميل الوفاء والمحبة بين العالم وطلابه طلب اللقاء في الآخرة.

● قال الشاذلي في ترجمته لشيخه السيوطي: (وبلغني عن الشيخ أنه قال لطلبته قبيل موته: إن أذن لي في الشفاعة شفعت لأصحابي ودخلت بهم الجنة. قلت: انظر لمحبته لطلابه وشفقته عليهم وعنايته بهم رضي الله عنه)[٢].

● وفي الدرر الكامنة: (وقف ابن دقيق العيد في الجبّانة يقرأ ويدعو ويبكي على قبر، فسئل، فقال: صاحب هذا القبر كان من أصحابي، وكان يقرأ عليَّ)[٣].

● وروي مرفوعًا: «يبعث الله العالم والعابد، فيقال للعابد: ادخل الجنة. ويقال للعالم: اشفع للناس كما أحسنت أدبهم» قال شبل: يعني تعليمهم[٤].

● وكان شيخنا محمد الصالح رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قدّم أحد الطلبة نعاله إليه غضب وقال: أعدها مكانها! تواضعًا وإعزازًا ورفعة لطلاب العلم.

---

(١) الفتاوى الفقهية الكبرى (١/ ٤).
(٢) بهجة العابدين (٢٦٩).
(٣) الدرر الكامنة (٥/ ٣٥٢).
(٤) رواه البيهقي في الشعب (١٧١٧) وفيه ضعف.

صور جمالية ناطقة بجمالها ومعبرة بذاتها عن روعتها.

اللهم اجمعنا في جنتك بمشايخنا وطلابنا ووالدينا وذرياتنا!

إنها معالم رائعة في حياة ومنهج العلماء مع طلابهم.

إنّ وراء هذه العناية المدهشة غايات نبيلة، وهي طلب مرضاة الله تعالى والفوز بجزيل نعمائه وكريم آلائه، وهذا أعظم الدوافع وأجل البواعث، وإذا تحقق ذلك للإنسان جاء بالعظائم.

وقد انطلق العلماء في عنايتهم هذه من أسس متينة، قام عليها هذا البناء الشامخ وثبتت أركانه وتعالت جدرانه، هذه الأسس هي عناية الشريعة بالعلم وأهله .

كتب في أدب الطلب والأخلاق والسلوك:

اقرأ كتبًا في أدب طلب العلم، فمن أساء الأدب ولم يتحلّ بآدابه فإنه يُحرَم خيرًا كثيرًا، ويخشى أن يكون سعيه هباءً منثورًا.

ومن الكتب المقترحة في ذلك:

أ- تعليم المتعلم، للزرنوجي الحنفي.

ب- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر المالكي.

ج- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة الشافعي.

د- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي الشافعي.

هـ- مقدمة المجموع، للنووي الشافعي.

و- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح الحنبلي.

ز- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم الحنبلي.

أيها الأشياخ والطلاب: كونوا لهذه الكتب أو بعضها ملازمين بين كل فترة وأخرى قراءة وتعليمًا، ففيها الوعظ والتذكير والأدب والسلوك والسير والعبر، لترقق القلوب، وتهذب المسير، وتسمو بالهمم والعقول، وتخلص النوايا، وتصلح النفوس من عطب الطريق وأمراض القلوب وآفات اللسان ووحر الصدور.

*****